

الابتهاال فن طريف فى أدب «محمد»

يشعر الإنسان بضعفه فى الحياة إذا حزبه أمر أو كربه ضيق ، فهو يلتمس المخرج لنفسه بالالتجاء إلى قوة كبيرة ، تنقذه من شدته ، وتنشله من عذابه ، ولن يكون لدى المسلم الصادق قوة أعظم من خالقه ومحبيه ، لذلك كان الالتجاء إلى الله فى كل أمر مفرعاً طبيعياً يهرع إليه المؤمنون واثقين بعونه وليس لهم غير أن يترجموا عن أزماتهم الكاربة بكلمات صادقة مخلصة ، هى ما يسمى بالدعاء أو الابتهاال ، والقرآن الكريم يعرف هذه الحقيقة لدى النفوس المحرجة التى تجد فى السماء فرجاً من ضيق فيقول عنها فى بعض ما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾^(١) . ويقول فى أسلوب تصويرى : ﴿هُوَ الَّذِى يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجَرْتُمْ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبِيبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾^(٢) فَلَمَّا أَجْلَتْهُمْ إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ^(٣) .

ولهذه الحقيقة النفسية التى تدفع بالضعيف دائماً إلى الالتجاء لقوة مسعفة ، شرع الله دعاءه والابتهاال إليه ، ليكون المؤمن على ذكر دائم من ربه فهو يقول :

(١) سورة الزمر : ٨ .

(٢) سورة يونس : ٢٢ ، ٢٣ .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾^(١) ويقول : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾^(٢) ، ثم عد الدعاء مما يمتدح به من صفات النبيين إذ يقول عن بعضهم : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾^(٣) .

ومحمد ﷺ أقرب الأنبياء إلى ربه ، وأشد المؤمنين تعلقًا بمولاه فهو لا يفتأ يدعوه في كل ساعة تمر ، حتى ترك من أدعيته الرائعة أدبًا عاليًا له سماته الجميلة من حرارة العاطفة ، وقوة الصدق وجمال التعبير ، وعجيب أن يسكت عنه النقاد غافلين .

لقد ورد الابتهاال الرباني في كتاب الله أول ما ورد في لغة العرب ، فتحدث القرآن على لسان الأنبياء بأجل ما يتحدث به من الدعاء حين قال على لسان إبراهيم :

﴿ رَبِّ إِنِّي أَضَلَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾^(١) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾^(٢) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا تَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾^(٣) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ

(١) سورة غافر : ٦٠ .

(٢) سورة البقرة : ١٨٦ .

(٣) سورة الأنبياء : ٩٠ .

وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٦٦﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٦٨﴾^(١).

كما عرض نمطاً من دعاء عباده المتفكرين في خلق السموات والأرض حين قال على لسانهم :

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلاً سُبْحَنَكَ فَخِنَا عَذَابِ النَّارِ ﴿٦٦﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ^ط وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿٦٨﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسْلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴾^(٢).

وأمثال هذه الابتهالات القرآنية على لسان البشر كثير يعرفه التالون ، وما إليها نقصد في كتابة هذا الموضوع ، إنما نشير هنا إلى أن الرسول ﷺ كان أول من استجاب إلى نداء ربه حين رفع إلى مقامه الأعلى آخر الأدعية وأحسن الابتهالات في بيان خلاب .

ولئن كان رسول الله المثل الأعلى للمؤمن الحقيقي ، فإنه لا محالة ذاك ربه في كل طرفة عين ، متجهاً إليه مع كل خفقة قلب ، فهو يسبحه ويدعوه إذا أصبح ، وإذا أمسى ، وإذا نام ، وإذا استيقظ ، وإذا سافر ، وإذا رحل ، وإذا أكل ، وإذا شرب ، وإذا سمع الرعد ، وإذا نزل المطر ، وإذا هبت الريح ، وإذا أشرقت الشمس ، وإذا بزغ الهلال ، وإذا مرض ، وإذا عوفي ، وإذا فزع ، وإذا أمن ، وله في كل ذلك

(١) سورة إبراهيم : ٣٦ : ٤١ .

(٢) سورة آل عمران : ١٩١ : ١٩٤ .

مأثورات رائعات مشهورات ترددها كتب الصحاح. وهى من الأدب الصميم لب اللباب ، ولا بد أن نستعرض هنا نماذج من مأثوراته لنستشف طابعها الأصيل .

يدلف المساء إلى الكون برهبتة ووحشته ، فيظلم الأفق بعد ضياء وتتجلى آية الله مكان آية ، وكل متأمل لابد أن يفكر طويلاً في هذا الاختلاف الكونى بين الليل والنهار ، وما كان لنبي ذى رسالة واعية كنبى الإسلام أن يغفل الانتباه إلى هذه الظواهر المدهشة دون أن تأخذ جانباً حياً من تفكيره ، إنه يستشف من ورائها عظمة الخالق المبدع فيرفع يده إلى السماء قائلاً :

« أُمسينا وأُسمى الملك لله ، والحمد لله ، لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، رب ، أسألك خير ما فى هذه الليلة ، وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شر ما فى هذه الليلة وشر ما بعدها ، رب ، أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر ، وأعوذ بك من عذاب فى النار وعذاب فى القبر» ^(١) .

دعوات بسيطة طاهرة ، يرفعها مؤمن تقى إلى خالقه عند المساء ، فإذا حان ميعاد النوم ، لم ينس رسول الله خطر الشرود الذهنى حين يتقلب الإنسان فى مضجعه قبل الرقاد ، ليسبح خاطره وحيداً فى أمور مسفة من المكر أو الطيش أو تدبير السوء لبعض الناس ، وهى وساوس نفسية لابد أن تلج إلى الخاطر ، وقد تترتب عليها مهواة عميقة تزل بها الأقدام ، فليحصن الرسول أتباعه منها ، فيشير عليهم بالطهارة والدعاء قبل النوم إذ يقول :

«إذا أتيت مضجعك ، فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل: «اللهم ، أسلمت وجهى إليك ، وفوضت أمري إليك ، وأجأت ظهري إليك ، لا ملجأ ولا منجاة منك إلا إليك ، اللهم ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، ونبيك الذى أرسلت ، واجعلن آخر ما تتكلم به» ^(٢) .

(١) «التاج» ، ج ٥ ، ص ١١٢ .

(٢) «هداية البارى» ، ج ١ ، ص ٢٣ .

أرأيت إلى هذا التحصين النفسى من الوسوس والنزعات ، إن المؤمن إذا توضأ قبل النوم ، ودعا ربه معلناً أنه فوض أمره إليه فلا منجاة منه إلا إليه ، وأنه آمن بالنبى والكتاب ، فلن يسمح لخاطره بعد ذلك التطهير النبوى أن يكون مسرحاً للمؤامرة والاحتيال ، ثم ماذا نرى من البساطة الهادئة فى ألفاظ هذا الدعاء ، لقد جاءت هيئة سهلة ليتمكن كل من يريد النوم أن يحفظها دون إجهاد ، وله بعد أن يدعوها ربه أن يتقبل أطيب الرقاد ، أما إذا شد الموقف ، وشردت الخواطر ، واستولى الأرق بعد ذلك ، فإن الرسول لا يترك المؤمن نهب السهاد يقذفه من بيداء إلى بيداء ، بل يشير عليه أن يلتجئ إلى ربه ليقول فى دعائه :

«اللهم ، رب السموات السبع وما أظلت ، ورب الأرضين وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلت ، كن لى جاراً من شر خلقك كلهم جميعاً ، أن يفرط علىّ أحد ، أو أن يبغى على ، عز جارك وجل ثناؤك ، ولا إله إلا أنت» ^(١) فإذا قام الإنسان فرغاً من النوم فليقل : «أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» ^(٢) .

أما إذا أشرق الصباح ، فلا بد من التجاء آخر إلى السماء نسأها العون والعافية ، والحفظ فى معترك النزاع بين الناس ، وذلك ما عبر عنه محمد إذ قال فى دعاء الصباح:

«اللهم ، إنى أسألك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة ، اللهم ، إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى ، وأهلى ومالى ، اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى ، اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى» ^(٣) .

(١) «التاج» ، ج ٥ ، ص ١٤٥ .

(٢) «التاج» ، ج ٥ ، ص ١٤٤ .

(٣) «التاج» ، ج ٥ ، ص ١١٢ .

إن المؤمن المثالي لا بد أن يكون ربانيًا متجهًا إلى السماء في كل طرفة عين ،
ليستمد من قوتها القديرة مددًا لا ينفد ، كذلك كانت جميع ساعات النهار لدى نبي
الله مسارح للدعاء والابتهاال ، قال ابن عمر: قلما كان رسول الله يقوم من مجلس
حتى يدعو بهذه الدعوات لأصحابه: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا
وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا
مصيبات الدنيا ، ومتعنا بأسماعنا ، وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا ،
واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ،
ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا»^(١) .

فماذا نرى في هذه المعاني الحية «اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين
معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات
الحياة».. لو فكر كاتب كبير فيما يدعو به ربه أترأه يقع على أمثال هذه المعاني ، وفي
يسر هذه الصياغة وقوعًا هادئًا غير متكلف! أم أنها من السهل الممتنع نعجب
ببساطتها ونعجز عن محاكاتها.

فإذا التزم السفر في رحلة يجهل عقباها ، فإنه يلتجئ إلى السماء مستنصرًا ،
فيكبر الله ثلاثًا ثم يقول: «سبحان الذي سخر لنا هذا ، وما كنا له بمقرنين ، وإنا إلى
ربنا لمنقلبون ، اللهم ، إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى ،
اللهم ، هون علينا سفرنا هذا ، واطو عنا بعده ، اللهم ، إنك الصاحب في السفر ،
والخليفة في الأهل ، اللهم إني أعوذ بك من وعشاء السفر وكآبة المنظر ، وسوء
المنقلب في المال والأهل»^(٢) .

أما إذا رجع فإنه يقول : «آيبون تائبون عائدون لربنا حامدون»^(٣) ، وإنه ليتجه
إلى الأرض يزورها في سفره لأول مرة فيقول لها من روعة: «يا أرض ، ربى وربك

(١) «التاج» ، ج ٥ ، ص ١٢٦ .

(٢) «التاج» ، ج ٥ ، ص ١٣ .

(٣) «التاج» ، ج ٥ ، ص ١٣٦ .

الله ، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك ، ومن شر ما يدب عليك ، وأعوذ بالله من أسد وأسود ومن الحية والعقرب ، ومن ساكني البلد ومن والد وما ولد»^(١) .

فإذا هبت الريح رفع يديه قائلاً: «اللهم ، إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به »^(٢) .

ثم إذا سمع الرعد ، أعد له من الدعاء ما يناسبه إذ يهتف: «اللهم ، لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك»^(٣) .

أما إذا أثمر الشجر فما أجمل ما تهدي إليه محمد في قوله حين يراه: «اللهم ، بارك لنا في ثمارنا ، وبارك لنا في مدينتنا ، وبارك لنا في صاعنا ومدنا ، اللهم ، إن إبراهيم عبدك وخليتك ونبيك ، وإنى عبدك ونبيك ، وإنه قد دعاك لمكة وأنا أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك به لمكة ومثله معه ، ثم يدعو أصغر وليد يراه فيعطيه ذلك الثمر».

حتى الصلاة المفروضة ، وكلها تكبير وتحميد وتسبيح لا يتركها النبي دون دعاء يفسح له بين التكبير والفاحة ، وإنه لذنو نفحة بيانية مؤرخة تتجلى في قوله عقب التكبير: «اللهم ، باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم ، نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد»^(٤) .

لقد جمع الأستاذ «أحمد أمين» بأحد الأعداد الممتازة من مجلة «الثقافة»^(٥) عدة ابتهالات نبوية رآها مما يحسن تقديمه للقراء ، فكان مما اختار من فرائد الرسول.

(١) «التاج» ، ج ٥ ، ص ١٣٨ .

(٢) «التاج» ، ج ٥ ، ص ١٤٢ .

(٣) «التاج» ، ج ٥ ، ص ١٤٣ .

(٤) «التاج» ، ج ٥ ، ص ١٨٩ .

(٥) «الثقافة» ، العدد ٤١٣ .

«اللهم ، إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى ، وتجمع بها أمرى ، وتلم بها شعئى ، وتزكى بها عملى ، وتلهمنى بها رشدى ، وترد بها ألفتى ، وتعصمنى بها من كل سوء .

اللهم ، أصلح ذات بيننا ، وألف بين قلوبنا ، واهدنا سبيل السلام ، ونجنا من الظلمات إلى النور ، اللهم بارك لنا فى أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة والنجاة من النار .

اللهم ، إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك ، اللهم أنت خلقت نفسى وأنت تتوفأها ، لك ملماتها ومحياها إن أحييتها فاحفظها وإن أمتها فاغفر لها .

هذا بعض ما اختاره الأستاذ أحمد أمين ، وأرى أن أضيف إليه دعاء الحفظ فإنه رائع جميل ، يقول رسول الله : «اللهم ارحمنى بترك المعاصى أبداً ما أبقيتنى ، وارحمنى أن أتكلف ما لا يعيننى ، وارزقنى حسن النظر فيما يرضيك عنى ، اللهم بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام ، والعزة التى لا ترام أسألك يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبى حفظ كتابك كما علمتنى ، وارزقنى أن أتلوه على النحو الذى يرضيك عنى ، اللهم أسألك أن تنور بكتابك بصرى ، وأن تفرج به عن قلبى ، وأن تشرح به صدرى ، وأن تغسل به بدنى ، لأنه لا يعيننى على الحق غيرك ولا يؤتیه إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم»^(١) قد يستكثر بعض القراء أن نسهب نوعاً ما فى نقل هذه الابتهالات ، إذ يرى بعضها مما ينوب عن البعض فى رسالة أدبية كهذه الرسالة .. ولكننا تعمداً الإسهاب تعمداً أن نشير إلى

(١) «التاج» ، ج ٥ ، ص ١٥٠ .

حقيقة أدبية كبيرة ، هى أن الابتهالات النبوية كانت مصدر الأدب الصوفى فى اللغتين: العربية والفارسية وهى حقيقة مهمة نسيها الناقدون.

إن الأدب الصوفى بمعناه الصحيح فى الآداب الإسلامية - هو الأدب الذى يتجه به قائله إلى ربه نابغاً من مشاعره الحية وأحاسيسه الجياشة نحو السماء ، ومصوراً فى ابتهالات ضارعة تستمد العون من مقتدر قاهر ، خلق الخلق وأجرى الرزق ، ودبر المنشأة والمآل ، فهل ما نعرفه اليوم مما اصطلاح عليه الناقدون فى الأدب الصوفى الإسلامى مما يتجه هذا الاتجاه؟

إن الأدب الصوفى الإسلامى قد اتجه فى مفهوم كثير من النقدة إلى حيز غريب عن الإسلام ، فهو لديهم أدب يتحدث عن وحدة الوجود ، والحلول ، والاتحاد ، وهى كلها أمور غريبة عن منطق الإسلام ، وقد ساعد المستشرقون على تأصل هذا الاتجاه فلم يتحدثوا عمن اشتق تعاليمه من القرآن والأحاديث ، من كرام المتصوفين إذ هو فى رأيهم غير متصوف ، أما الصوفى الحقيقى لديهم ، فهو الذى يلهى العقول بألغاز الاتحاد ، والحلول ، ووحدة الوجود ، ويغرق فى التهاويل والخيالات.

وحتى قصائد الغزل النبوية الصريحة تصير أدباً صوفياً فى اتجاه هؤلاء؛ إذ إن ليل ، وعزة ، وسلمى رموز إلى الحضرة الإلهية ، وإن ما تتصف به الحسنة من الحسن والسحر والجمال ، ومنه الحسى الصارخ كنصرة الخد ، وهيف القد ، وعذوبة الثنايا ، وليونة الأعطاف ، واسوداد الشعر ، واحورار الطرف كل ذلك مما يرمز إلى جمال الله ، ونحن لا نرفض جملة كل غزل صوفى ، بل نميل إلى أن بعض المقطوعات الغزلية مما جعلت فيه صفات الحسنة رمزاً للجمال الإلهى قد تنصرف إلى الذات العلية ، إذا كانت الحسنة مجرد رمز معنوى يتحدث عن الجمال المطلق ، كما فى بعض أشعار ابن الفارض. أما أن تكون الأوصاف الحسية للعين ، والصدر ، والنهد ، والخصر ، والردف مما يتجه إلى جمال الخالق فذلك ما يصعب استشفافه لدى الأذكياء ، فكيف بعمامة الناس؟

ثم لماذا نقصر الأدب الصوفي على الغزل الرمزي والشطحات الفلسفية ، فلا نتحدث في مجال الأدب لدى المتصوفين إلا عن (ابن عربي ، وابن سبعين ، والبسطامي ، والحلاج) لنغرق في أوهام الحلول ووحدانية الوجود والاتحاد ، إنا نصارع بالحقيقة حين نعتبر أكثر ما قيل في ذلك دخيلاً على الأدب الصوفي الحقيقي ، وهو الذي ينبع من حقائق القرآن وتعاليم الحديث ، ثم تمثل أول ما تمثل في ابتهالات رسول الله .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن هذه الابتهالات النبوية قد نمت وازدهرت في الأدب العربي على مد عصوره ، بحيث كانت أصلاً ضخماً امتدت منه فروع لا تحصى ، ففى كل عصر داعية مبتهل يرفع إلى ذات الله أجمل الأدعية وأخلص الابتهالات ومتى جمعت هذه الأدعية في أسفار خاصة فقد أوجدت من الأدب الرفيع ما تتضاءل دونه دواوين الفخر والمدح والهجاء .

أنغمض العيون عن هذه الثروة الممتازة من البيان وقد ابتدأها الرسول ، ثم نهج نهجه عشرات الصادقين من البررة الأخيار ، وهى بعد لم تقبع في حيز ضيق وزمن محدود ، بل أدركها التطور فأصبحت - على مر الزمان - تتلى في صورة أوراد وأحزاب واستغاثات .

إن ما لدينا من ذخائر الأدب الصوفي الصحيح بابتهالاته ، وأوراده ، وأحزابه ، واستغاثاته أوفى وأعظم وأبهر من أن يغفله التاريخ الأدبي ، فكيف أغفله مؤرخو الإسلام وقد بدأه رسول الله ؟

قد التفت الدكتور زكى مبارك إلى هذه الناحية الخطيرة في الجزء الأول من كتابه عن التصوف الإسلامى ، فقال تحت عنوان: «ذخائر منسية في الأدب الصوفى» ما نصه :

« نتكلم في هذا الفصل عن طرائف من الأخيلة والمعانى والصور لم يهتم بها رجال الأدب ، ولم يحسبوا لها أى حساب ، ولعل السر في إغفال مؤرخى الأدب

لهذه الفنون أنهم لم يضعوا البلاغة الصوفية في الميزان ، لأن الصوفية انحازوا جانباً عن صحبة الأدباء ، ولأن الأدباء أنفسهم أقبلوا على الصور الحسية إقبالاً شغلهم عن الأدب الذي يصور أحوال الأرواح والقلوب ، فظنوا أدب الصوفية بعيداً عن المجال الذي تسابقوا فيه: مجال التشبيب ، والوصف ، والحماسة ، والعتاب ، ولو أن رجال الأدب وعلماء البلاغة نظروا في الأدب الصوفي نظرة جدية لاتخذوا منه شواهد في المجازات والتشبيهات ، ولرأوا فيه كلمات متخيرة تصلح نماذج لإصابة المعنى والغرض ، ولكنهم انصرفوا عنه فلم نر في مؤلفاتهم النقدية غير شواهد من كلام الشعراء والخطباء والكتاب الذين سبقوا في ميادين غير ميادين الأرواح والقلوب»^(١) .

ومعنى كلام الدكتور زكى مبارك أن مؤرخى الأدب العربى لم يفهموا أن معنى الأدب فى صميمه هو التعبير الجميل عن الخاطر الجميل ، بل فهموا أنه فى الشعر مجموعة القصائد ذات الأغراض التقليدية ، وفى النثر رسائل وخطب تشغل شئون الناس فى أحوالهم العامة ، أما الابتهالات الصادقة فمما يجب أن يعكف عليه الوعاظ والنساك لا النقدة والأدباء ، وهو فهم قد هوى بكثير من الروائع الملهمة إلى دياجير النسيان ، بينما ارتفع بالهجاء والمجون والغزل بالذكر وما شابه ذلك إلى مشارق التردد والاحتفاء ، وإلا فكيف جار أن يتدع محمد ﷺ فن الابتهال فى الأدب العربى ، ويحاكيه عشرات من البلغاء على مد العصور الإسلامية فيأتوا بذخائر غالية من أحاسيس الملهمين ثم لا يلتفت إلى تقديرها النقاد.

ما الذى يمنع أن نتدارك ما فات من هذا الإغفال؟ فينهض ناقد مخلص بتأليف كتاب أدبى تحت عنوان: «فن الابتهال فى الأدب العربى ، يبدؤه بنشأة الابتهال الأولى فى دعوات الرسول ، ثم يتابع ما وليه من تلاميذ الدعوة الإسلامية ، فيتحدث عن ابتهالات أئمة البيت النبوى ، وأدعية الصحابة والتابعين ، وأوراد

(١) «التصوف الإسلامى» ، ج ١ ، ص ١١٣ .

المتصوفين ، وأحزاب الذاكرين ، ثم يشخص السمات الفنية للابتهاال في كل عصر ، وسيجد أمامه نبعا يتدفق وبحرا لا يغيض .

يكفى في مجال التقدير الأدبي لابتهاالات محمد ، أنها ألهمت أئمة البيت النبوى - على سبيل المثال - أعذب ما يروى من الأدعية ، فسارت ابتهاالاتهم تشق الصدور المؤمنة حتى تسكن في الشغاف ، وتحلق في الأجواز العالية حتى ترفرف في عليا السموات .

أليس أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه تلميذ محمد؟ فبأى لسان رطب كان يصدق بصادق الابتهاال ، وبأى شعور دفاق استلهم أستاذة وابن عمه حين قال في دعوات الاستسقاء :

«اللهم ، قد انصاحت جبالنا واغبرت أرضنا ، وهامت دوابنا ، وتحيرت في مرابضها ، وعجت عجيج الثكالى على أولادها ، وملت التردد في مرابعها والحنين إلى مواردها ، اللهم ، فارحم أنين الآنة وحنين الحانة ، اللهم ، فارحم حيرتها في مذاهبها وأنيها في موالجهها ، اللهم ، خرجنا إليك حين اعتكرت علينا حدابير السنين ، وأخلفتنا مخايل الجود ، فكنت الرجاء للمبتئس والبلاغ للملتمس ، ندعوك حين قنط الأنام ، ومنع الغمام ، وهلك السوام ، ألا تؤاخذنا بأعمالنا ولا تأخذنا بذنوبنا ، وانشر علينا رحمتك بالسحاب المنبعق ، والربيع المغدق والنبات المونق ، سحّا وابلا تحيى به ما قد مات ، وترد به ما قد فات ، اللهم ، سقيا منك محمية مروية ، تامة عامة ، طيبة مباركة ، زاكيا إنباتها ثامرا فرعها ناضرا ورقها تنعش بها الضعيف من عبادك ، وتحى به الميت من بلادك ، اللهم ، سقيا منك تعشب بها نجادنا ، وتجرى بها وهادنا ، وتخصب بها جناننا ، وتبقل بها ثمارنا ، وتعيش بها مواشيننا ، وتندى بها أقاحينا وتستعين بها ضواحيننا من بركاتك الواسعة ، وعطايك الجزيلة على بريتك المرملة ، ووحشك المهملة ، وأنزل علينا سماء مخضلة مدرارا هاطلة ، يدافع الودق منها الودق ، ويحفر القطر منها القطر ، غير خلب برقها ، ولا جهام

عارضها ، ولا قزع ربابها ، ولا شفاق ذهابها ، حتى يخصب لإمراعها المجدبون ، ويحيا ببركتها المستنون فإنك تنزل الغيث بعد ما قنطوا وتنشر رحمتك وأنت الولي الحميد»^(١) .

كيف ننسى أمثال هذا الابتهاال ، وهو في ميزان النقد الأدبي من أرفع أنماط البيان ، وللإمام على أمثلة عدة من نوعه ، ولكن الفوارق الأدبية واضحة ما بينه وبين ابتهاالات محمد ، فابتهاالات الرسول ﷺ تعتمد على الإيجاز واللمح ، وتشير إلى الكثير ببعض القليل ، أما ابتهاالات الإمام على فتعتمد على التشويق والتفريع ، إذ إن من سماته البيانية لدى النقاد إشباع الفكرة بتذليلها وتوشيتها ، ولن يكون التلميذ نسخة متشابهة من الأستاذ في كل الوجوه.

سيقول الذين في قلوبهم مرض : أن يد (الشريف الرضي) وراء كل ما نشره في نهج البلاغة منسوباً للإمام ، ونحن نقول لهم : إن عليا كان أبلغ الخطباء بعد رسول الله ، ولن نستكثر عليه أكثر ما عزى إليه من « نهج البلاغة » مما توحى به طبيعة عصره وأفكار جيله : ﴿ وَلَا تَلْسُؤُوا الْحَقَّ بِالْبُطْلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ ﴾^(٢) .

ومن غير على من بيت النبوة برز في الابتهاالات؟! إنه حفيده على بن الحسين المعروف بزين العابدين ، وله من الأدعية ما كاد يلحقه بجده الإمام براءة ، وتشويق منطوق ، وحرارة روح مما استلهم فيه جد أبيه محمداً خاتم الأنبياء صلوات الله عليهم جميعاً.

لقد كان زين العابدين رضى الله عنه لا يقصر الابتهاالات على المسائل الشخصية ، بل يقفز بها إلى الوضع السياسى في عصره ، وهو في ذلك مصيب ،

(١) « التصوف الإسلامى » ، ج ٢ ، ص ٦٠ عن نهج البلاغة .

(٢) سورة البقرة : ٤٢ .

إذ يعلم أن الله عز وجل وحده صاحب الكلمة العليا في سياسة الناس وإليه يجأر المظلوم من الظالمين ، والذين يقصرون الابتغال على مسائل الآخرة دون مسائل الدنيا غافلون ساهون ، ويستطيع مؤرخ الابتغالات أن يضيف إليها الجديد إذا دقق فيما روى عن علي وحفيده من شكاية الزمان ومحاربة الطغاة.

يقول زين العابدين علي بن الحسين فيما روى عنه من الابتغال:

«اللهم وقد شملنا زيغ الفتن ، واستولت علينا عشوة الحيرة ، وقارعنا الذل والصغار ، وحكم في عبادك غير المأمونين على دينك ، فابتز أموال آل محمد من نقص حكمك وسعى في تلف عبادك المؤمنين فجعل فيأنا مغنماً ، وأمانتنا ميراثاً ، واشترت الملاهي والمعازف بسهم الأرملة واليتيم والمسكين فترع في مالك من لا يرعى له حرمة ، وحكم في أبشار المسلمين أهل الذمة فلا زائد يذودهم عن هلكة ، ولا راحم ينظر إليهم بعين الرحمة ، اللهم قد استحصد زرع الباطل وبلغ نهيته ، واستحكم عموده»^(١).

ولا ينكر نقمة زين العابدين علي بنى أمية من يعلم أن الحسرة تشتعل في صدره منذ رأى أباه الحسين ، جزر الرماح بكرلاء في يوم يشيب فيه الولدان ، وتلك لحظة مفزعة لن يبرح هو لها مخيلة الابن الملتاع.

ولن يطول بنا الاستطراد ، فنحصى من بيت النبوة من برع في الابتغال ، ولكننا نختم القول بجعفر الصادق الإمام الصائم المعروف بالسجاد ذى الثغفات فإن ابتغالاته البارعة وحدها باب معلم في دنيا البيان ، والله ما أرق قلبه وأخلص نفسه وأنقى ضميره حين أخذ يسأل ربه في ضراعة دامعة وابتغال كسير:

«أترك تغل إلى الأعناق أكفأ تضرعت إليك ، واعتمدت في صلاتها راکعة ساجدة بين يديك ، أو تقيد بأنكال الجحيم أقداماً سعت إليك ، وخرجت من

(١) «التصوف الإسلامى» ، ج ٢ ، ص ٦٤.

منازلها لا حجة لها إلا الطمع والرغبة فيما لديك ، منّا منك عليها سيدى لا منّا منها عليك ، بل ليت شعرى ، أترك تصم بين أطباقها أسماً تلذذت بحلاوة كتابك الذى أنزلت ، أو تطمس بالعمى فى ظلم مهاويها أبصاراً بكت إليك خوفاً من العقاب وفرعاً من الحساب ، أما وعزتك وجلالك ما أصغت الأسماع حتى صدقت ، ولا أسبلت العيون وأكف العبرات حتى أشفقت ، ولا عجت الأصوات إليك بالدعاء حتى أشفقت ، ولا تحركت الألسن ناطقة باستغفارها ، حتى ندمت على ما كان من زللها وعثارها».

وبعد :

فلعلنا بعد هذا الاستعراض الأدبى لأفانين من الابتهاال النبوى على لسان محمد وآله صلوات الله عليهم وسلامه ، نعترف بريادة نبي الإسلام لمن وليه من المبتهلين ، كما نلفت النقاد إلى إنقاذ غرض مهم من الأغراض الأدبية الجميلة كاد أن يعفى عليه النسيان ، وفى أورد الصادقين من صوفية الشاذلية ، والبكرية ، والنقشبندية قد تراكمت لدينا تركة مثقلة تنتظر من يتقدم إليها بالتشريح والتحليل فينفى منها الدخيل المفتعل ، ويكشف عنها المموه المتكلف ، ثم يرد الفروع إلى أصولها والجداول إلى منابعها ، ويكتب تاريخ هذا الفن مبتدئاً بمحمد ﷺ ؛ إذ كان أول ملهم فى الإسلام ، تطلع إلى أنوار السماء فائتلفت فى قلبه نوراً ، وفاضت على لسانه ابتهالاً صادقاً ، ودعاءً يرتقى إلى سدرة المنتهى دون معراج .

* * *